دعم الخلفاء للمهن والحرف في العصر العباسي المتأخر

م.م. محمد وليد محمد
جامعة سامراء/ كلية التربية للعلوم الإنسيانية
mohammedo@uosamarra.edu.iq

الملخص:

يتناول هذا البحث مظاهر دعم الخلفاء العباسيين للمهن والحِرَف في العصر العباسي المتأخر، بوصفها ركيزة أساسية في البنية الاقتصادية والاجتماعية للدولة. ويهدف إلى إبراز سياسات الرعاية التي انتهجها الخلفاء تجاه أرباب الحِرَف والصنائع، ودورها في الحفاظ على الاستقرار الاقتصادي وتنشيط الأسواق الحضرية في ظل التحديات السياسية والعسكرية التي واجهتها الخلافة آنذاك. اعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي، من خلال تتبّع الروايات التاريخية والمصادر التراثية التي تناولت أحوال الصناعات والحِرَف وأساليب تنظيمها.

وتشير نتائج البحث إلى أن الخلفاء العباسيين المتأخرين حرصوا على دعم المهن عبر إنشاء الأسواق المتخصصة، وتعيين المحتسبين لمراقبة الجودة والأسعار، وتوفير الحماية للحرفيين، فضلًا عن رعاية الصناعات المرتبطة بالقصر والدواوين كصناعة النسيج، والورق، والسلاح. كما أسهم هذا الدعم في تعزيز المكانة الاجتماعية للحِرَفيين، وتحقيق قدر من التكافل الاقتصادي داخل المدن الكبرى مثل بغداد وسامراء. ويخلص البحث إلى أن سياسة دعم الحِرَف شكّلت أداة مهمة للحفاظ على استمرارية النشاط الاقتصادي، وأسهمت في إبقاء الحواضر العباسية مراكز إنتاج وتجارية فاعلة رغم مظاهر الضعف السياسي في أواخر العصر العباسي.

الكلمات المفتاحية: العباسيين، العصر العباسي، المتأخر، المهن، الحرف.

Al Malweah
for Archaeological
and Historical Studies

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

Caliphal Support for Professions and Crafts in the Late Abbasid Period

Asst. Lect. Muhammad Walid Muḥammad
Samarra University/ College of Education for Human Sciences

Abstract:

This study examines the support provided by Abbasid caliphs to professions and crafts during the late Abbasid period, considering them a fundamental pillar of the state's economic and social structure. The research aims to highlight the policies adopted by the caliphs to sustain craftsmen and artisans, and to analyze their role in maintaining economic stability and revitalizing urban markets amid the political and military challenges faced by the Abbasid Caliphate. The study adopts a historical-analytical approach, drawing on classical historical sources that document the organization of crafts, market regulations, and state involvement in industrial activities.

The findings indicate that late Abbasid caliphs supported crafts by establishing specialized markets, appointing mutases to supervise quality and prices, and providing protection and incentives to artisans. Particular attention was given to industries linked to the court and administrative institutions, such as textiles, papermaking, and weapon manufacturing. This patronage contributed to enhancing the social status of craftsmen and promoting economic solidarity within major urban centers, including Baghdad and Samarra. The study concludes that state support for professions and crafts played a crucial role in sustaining economic activity and preserving the productive and commercial vitality of Abbasid cities, despite the political decline that characterized the later stages of the Abbasid era.

Keywords: Abbasids, Abbasid era, late, professions, crafts.

التمهيد:

شهد العراق في العصر العباسي الأخير تطورًا ملحوظًا في نشاطه الصناعي، أسهمت فيه جملة من العوامل المتداخلة، كان في مقدمتها وفرة المواد الأولية وتنوعها، فضلًا عن الموقع الجغرافي المتميز الذي جعله نقطة التقاء لطرق التجارة البرية والنهرية، الأمر الذي أتاح للصناعات المحلية الحصول على الخامات اللازمة، وسهّل في الوقت نفسه تصريف منتجاتها في الأسواق الداخلية والخارجية. وقد أدرك خلفاء بني العباس أهمية الصناعة بوصفها ركيزة أساسية من ركائز الاقتصاد الحضري، ولاسيما في ظل التغيرات

السياسية وتقلّص الرقعة الجغرافية لنفوذ الخلافة، فعملوا على دعم الصناعات القائمة في مدن العراق، إلى جانب تشجيع إنشاء صناعات جديدة تسهم في تعزيز موارد الدولة وتنشيط الحياة الاقتصادية (الكبيسي، 1985، 277؛ الدوري، 1999، 241).

وانعكس هذا التوجه بوضوح على ازدهار المدن العراقية الكبرى، حيث اشتهر العراق بتنوع صناعاته وظهور التخصص المهني فيها، ولاسيما في بغداد والبصرة والكوفة وواسط. فقد تداخل التطور الصناعي مع التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدها المجتمع العباسي في تلك المرحلة، وأسهم في إعادة تشكيل البنية الحضرية للمدن، من خلال نشوء أحياء وأسواق متخصصة بالحِرَف والمهن المختلفة (الكبيسي، 1985، 281). وأسهم هذا التخصص في بروز طبقة واسعة من الحرفيين وأصحاب المهن، الذين أدّوا دورًا فاعلًا في الحياة الاقتصادية، حتى غدا العراق مركزًا مهمًا للعديد من الصناعات الدقيقة التي تطلبت مهارات عالية وخبرات متراكمة ومتوارثة، وهو ما يدل على نضج البنية الحِرَفية للمجتمع العباسي (الجميلي، 1987، 88؛ ماسينون، د.ت، 353/14).

وفي هذا السياق، وصف ابن الفقيه بغداد وصفًا يعكس مكانتها الصناعية والتجارية، مشيرًا إلى اجتماع مختلف أنواع التجارات والصناعات فيها، الأمر الذي جعلها تمثل مركزًا حضريًا فريدًا تتلاقى فيه منتجات الأقاليم المختلفة وتتفاعل فيه الخبرات الحرفية المتنوعة (ابن الفقيه، 1996، ص 23). ولم يكن هذا التميز وليد الصدفة، بل جاء نتيجة سياسات تنظيمية واضحة انتهجتها الخلافة، تمثلت في الإشراف المباشر على بعض المصانع، وتنظيم العمل الحِرَفي، وترسيخ ظاهرة التخصص المهني، فضلًا عن الدور الرقابي الذي اضطلع به المحتسب، الذي نظّم الأسواق، وحدد مواقع الحِرَف، وضبط معايير الجودة والإتقان، ومنع الغش والتلاعب في المواد والأوزان (أبو بكر، 1884، 252؛ الشيزري، 1981، 45).

كما كان العمل في بعض الصناعات يتطلب الحصول على إجازة رسمية تُمنح بتخويل من الخليفة عبر رؤساء النقابات المهنية، وهو ما يدل على مستوى متقدم من التنظيم الإداري والاقتصادي، ويعكس وعي الدولة بأهمية الصناعة في دعم الاستقرار المالي والاجتماعي. وقد شكّلت هذه النقابات إطارًا مؤسسيًا لتنظيم شؤون الصناع، وحماية مصالحهم، وضمان انتقال الخبرة من جيل إلى آخر وفق نظام مهني هرمي يبدأ بالمتعلم وينتهي بالأستاذ (ماسينون، د.ت، 354/14).

وعلى الرغم من تقلّص النفوذ الجغرافي للخلافة العباسية في العصر العباسي الأخير واقتصاره على مناطق محددة تمتد من أقصى الكوفة إلى حلوان، ومن تكريت إلى عبادان، فإن بغداد احتفظت بمكانتها بوصفها مركز الثقل الاقتصادي والصناعي، واستمرت فيها أهم الصناعات والحِرَف التي تطورت وازدهرت عبر الزمن، مستفيدة من تراكم الخبرات وتكامل الحِرَف المساندة (الكبيسي، 1985، 284؛ متز، 1967، 340/2).

وتأتي في مقدمة هذه الصناعات حرفة النسيج وصناعة الألبسة، التي تُعد من أقدم الحرف اليدوية في العراق، نظرًا للظروف المناخية والاجتماعية التي جعلت العناية بالملبس ضرورة حياتية، فضلًا عن كونه مؤشرًا على المكانة الاجتماعية والانتماء الطبقي (البنداري، 1978، 216). وقد حظيت الملابس باهتمام كبير في المجتمع العباسي، إذ ارتبطت بالمناسبات الرسمية والدينية، وبالوظائف الإدارية، وبأنماط العيش داخل البيوت، التي زُيّنت بالستور والبسط والسجاد والوسائد، وتنوّعت الأقمشة فيها بحسب الأقاليم والبلدان، مما يعكس ذوقًا فنيًا رفيعًا وتمايزًا ثقافيًا واضحًا (ابن خلدون، 1999، 116).

وقد أسهم تنافس الطبقات الغنية على اقتناء الملابس الفاخرة وامتلاك صناديق تضم عشرات القطع في تحفيز الصناع على تحسين جودة الإنتاج وتجويد الأساليب الفنية، الأمر الذي أدى إلى ازدهار هذه الحرفة وتطورها بشكل ملحوظ. ولم يقتصر هذا التطور على الجانب الكمي، بل شمل الجوانب التقنية والفنية، ولاسيما في مجالات الغزل، والنسج، والتطريز، والصباغة، ما يعكس مستوى متقدمًا من المعرفة الحِرَفية (متز، 1967، 350/2؛ غنيمة، 1941، 568/8).

كما شهدت صناعة الألبسة في العصر العباسي الأخير تطورًا لافتًا من حيث تنوع الألوان ودقة التطريز وإتقان تقنيات الصباغة، إذ تطلبت هذه الصناعة معرفة دقيقة بخصائص المواد المستخدمة، كالقطن والكتان والصوف والحرير، فضلًا عن الإحاطة بفنون التلوين والزخرفة لإضفاء الجمال على الأنسجة. وكان اللون الوردي من الألوان الشائعة في الثياب، إلى جانب السواد الذي عُرف بوصفه شعارًا للعباسيين، فضلًا عن انتشار اللون الكحلي وغيره من الألوان التي عكست ذوق العصر وميوله الفنية (غنيمة، 1941، 569/8).

وتؤكد المصادر التاريخية تفوق أهل العراق في صناعة المنسوجات، ولاسيما الأقمشة البغدادية التي ذاع صيتها في مختلف الأقاليم، حتى أصبحت علامة على الجودة والإتقان. وقد أشار ابن الفقيه إلى شهرة صناعة الثياب البيض، فيما ذكر النويري تميز الأبلة بصناعة ثياب الكتان المقصبة، والكوفة بصناعة عمائم

الخز والبنفسج المعروفة بجودتها، إضافة إلى بغداد التي اشتهرت بصناعة الطرائف وألوان ثياب القز، حتى قيل: «من كان يريد الثياب الرقاق فليلحق بالعراق» (النويري، 1949، 156؛ المقدسي، 1906، 123).

وفي منطقة الكرخ، برزت صناعة الثياب الأبريسمية، ولاسيما الستائر الحريرية التي كان الخليفة الناصر لدين الله يرسلها لكسوة الضريح النبوي الشريف في المدينة المنورة، وقد عُرفت هذه الستائر بألوان متعددة، منها البنفسجي والأسود والأبيض، فضلًا عن الأخضر والأحمر (بن أبي بكر، 1909، 128). ويؤكد ابن جبير هذا التفوق الصناعي حين وصف ما شاهده من ستائر الكعبة المشرفة المصنوعة من الحرير الأخضر والمطرزة بالحرير الأحمر، والتي كُتب عليها اسم الخليفة الناصر لدين الله، بما يعكس المكانة الرفيعة التي بلغتها الصناعات العراقية في العصر العباسي الأخير، ودورها في خدمة الرموز الدينية والسياسية في آنٍ واحد (ابن جبير، 1968، 180).

حرفة صناعة الورق:

وإلى جانب ما تقدّم، فإن ازدهار صناعة الورق في بغداد لم يكن نتاج الحاجة العلمية والإدارية فحسب، بل ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالتطور الشامل في البنية الاقتصادية والحِرَفية للمدينة، التي شهدت في العصر العباسي الأخير درجة عالية من التعقيد والتنظيم. فقد شكّلت صناعة الورق حلقة وصل محورية بين النشاط العلمي والحركة التجارية، وأسهمت في تفعيل الدورة الاقتصادية من خلال توفير مادة أساسية تدخل في صميم الإنتاج المعرفي والإداري. وقد أدى توفر الورق الجيد بأسعار مناسبة نسبيًا إلى تشجيع حركة النسخ والتأليف، وتيسير تداول الكتب، الأمر الذي أتاح انتشار المعرفة خارج نطاق البلاط والدواوين الرسمية، لتصل إلى المدارس والمساجد وحلقات العلم ودوائر التعليم المختلفة، مما عزّز من مكانة بغداد بوصفها مركزًا إشعاعيًا للثقافة والعلم في العالم الإسلامي (إبراهيم، 1988، 307–308).

وتشير كثافة مصانع الورق في محلات دار القز والنصرية والعتابية إلى وجود تنظيم حرفي دقيق يقوم على تقسيم العمل وتراكم الخبرة الفنية عبر أجيال متعاقبة، وهو ما أفضى إلى نشوء بيئة إنتاجية شبه صناعية تجاوزت الإطار الحِرَفي البسيط. فقد كانت هذه المناطق أشبه بورش متخصصة تعمل وفق نسق إنتاجي منتظم، يعتمد على مهارات متقدمة في إعداد العجينة، ومعالجة الألياف، وتحسين جودة المنتج النهائي. ويُفهم

من ذلك أن صناعة الورق في بغداد بلغت مرحلة من النضج مكّنتها من تلبية الطلب المحلي المتزايد، فضلًا عن قدرتها على تزويد الأسواق الخارجية، الأمر الذي أسهم في تعزيز مكانة المدينة ضمن شبكات التبادل التجاري والثقافي داخل العالم الإسلامي وخارجه (إبراهيم، 1988، 308).

ولم تقتصر أهمية الورق البغدادي على خصائصه المادية من حيث المتانة والنعومة وحسن الامتصاص، بل امتدت لتشمل رمزيته الثقافية والحضارية، إذ ارتبط بالعلم والدين والإدارة ارتباطًا وثيقًا. فقد كان اختياره لنسخ المصاحف الشريفة والكتب العلمية الكبرى والوثائق الرسمية تعبيرًا واضحًا عن الثقة العالية بمواصفاته الفنية، ودليلًا على اعتباره مادة راقية تُستخدم في أكثر المجالات حساسية وأثرًا. ويؤكد وصف القلقشندي للورق البغدادي بوصفه من أعلى أجناس الورق هذه المكانة المرموقة التي حظي بها المنتج العراقي في الأوساط العلمية والإدارية، وما بلغه من شهرة وجودة جعلته معيارًا للمفاضلة بين أنواع الورق المختلفة (القلقشندي، د.ت، 487/2).

ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن صناعة الورق في بغداد لم تكن مجرد حرفة قائمة بذاتها، بل مثلت ركيزة أساسية من ركائز النهضة العلمية والحضارية في العصر العباسي الأخير، وأسهمت إسهامًا مباشرًا في استدامة الحركة الفكرية ونقل المعرفة وتراكمها. كما أدت دورًا مهمًا في الربط بين الإنتاج الحِرَفي ومتطلبات المعرفة والسلطة، وهو ما يفسر اهتمام الخلفاء، ولاسيما المستنصر بالله، بتأمين الورق للمؤسسات التعليمية، ودعم استمرارية إنتاجه، إدراكًا منهم لأهميته في حفظ العلم وتنظيم شؤون الدولة وترسيخ أسس الحضارة (الجميلي، د.ت، 92).

حرفة الصباغة :

وإلى جانب البعد الجمالي الذي عكسته الألوان المتنوعة في الأقمشة، فإن تطور حرفة الصباغة في العصر العباسي يدل دلالة واضحة على مستوى متقدم من المعرفة التقنية والتجريب العملي في التعامل مع المواد الخام وخصائصها الفيزيائية والكيميائية. فعملية تثبيت اللون والمحافظة على بريقه ومقاومته للغسل والعوامل البيئية لم تكن أمرًا يسيرًا، بل تطلّبت خبرة طويلة وتجارب متراكمة، مكّنت الصبّاغين من فهم طبيعة الألياف النسيجية، ودرجة امتصاصها للأصباغ، وطرائق المعالجة المسبقة واللاحقة، الأمر الذي أسهم في

الوصول إلى درجات لونية ثابتة ومتجانسة تلبي أذواق مختلف طبقات المجتمع، من العامة إلى النخب الحاكمة (غنيمة، 1941، 569؛ الجاحظ، د.ت).

ويُظهر تخصّص بعض الصبّاغين في لونٍ بعينه وجود درجة عالية من الاحتراف المهني والتنظيم الحِرَفي، إذ لم تكن الصباغة عملًا عامًا أو مهارة عارضة، بل صنعة دقيقة لها قواعدها وأسرارها وتقنياتها الخاصة، تنتقل عبر الممارسة والتعلّم داخل الأوساط الحرفية، غالبًا في إطار عائلي أو مهني مغلق. وتشير كتب الحِرَف والأسواق إلى أن هذا التخصّص كان يضمن جودة المنتج واستقرار سمعته في السوق، ويحدّ من الغش والتفاوت في المستوى الفني (ابن الأخوة، 1938، 125؛ الشيزري، د.ت، 71).

كما أن اعتماد الصبّاغين على الأصباغ النباتية والمعدنية يعكس معرفة دقيقة بالبيئة المحلية وخصائص نباتاتها ومعادنها، فضلًا عن وعي بأهمية المواد الطبيعية في ضمان ثبات اللون وسلامة النسيج وعدم إتلافه. فقد استُخدمت نباتات مثل الفوة والورس والنيلة في استخراج الألوان الحمراء والصفراء والزرقاء، وهي مواد عُرفت بقدرتها على منح الأقمشة ألوانًا ثابتة تدوم زمنًا طويلًا إذا ما استُعملت وفق طرائق علمية دقيقة. ويُفسَّر استمرار استخدام بعض هذه الأصباغ عبر قرون بكونها ثمرة تفاعل طويل بين المعرفة التجريبية والخبرة العملية المتراكمة (غنيمة، 1941، 569؛ حسن، 1986، 214).

أما صباغة الحرير، فقد مثّلت الذروة الفنية والتقنية في هذه الحرفة، نظرًا لما يتطلبه هذا النسيج من عناية خاصة ودقة عالية في اختيار الصبغ ودرجة الحرارة ومدة التعريض. فالحرير نسيج حساس، وأي خطأ في المعالجة قد يؤدي إلى فقدان لمعانه أو إضعاف بنيته، وهو ما جعل صباغته حكرًا على أمهر الصنّاع. ويشير تنوع ألوان الحرير بين الأخضر والأصفر والأزرق إلى مستوى متقدم من التحكم في عملية الصباغة، وإلى قدرة الصناع على تلبية متطلبات الطبقات الراقية، التي كانت ترى في الحرير المصبوغ رمزًا للترف والمكانة الاجتماعية والتميّز الحضاري (غنيمة، 1941، 569؛ آدم متز، 1967، 411/2).

وبذلك، فإن حرفة الصباغة لم تؤدِ وظيفة اقتصادية فحسب، بل أدّت دورًا حضاريًا وثقافيًا بالغ الأهمية، أسهم في تشكيل الذوق العام، وأثر في أنماط اللباس والزينة، وربط بين الجمال والفن من جهة، والحرفة والمعرفة التقنية من جهة أخرى. ومن هنا، يمكن عدّ الصباغة واحدة من أبرز مظاهر التقدم الصناعي في العصر العباسي الأخير، ودليلًا على ما بلغه المجتمع من تفاعل خلّاق بين الخبرة العملية والمعرفة التطبيقية في المجال الحِرَفي.

حرفة الصياغة:

استمرّت حرفة صياغة الذهب في العراق خلال العصر العباسي الأخير في مسارٍ تصاعدي من التطور، مدفوعةً بجملة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية، في مقدّمتها الإقبال المتزايد من قِبَل الطبقات الغنية وذوي اليسار، وما رافق ذلك من تنامٍ واضح في مظاهر الترف والرخاء داخل المجتمع الحضري، فضلًا عن الطلب المستمر على أدوات الزينة الشخصية، ولا سيما تلك التي كانت تُصنَع خصيصًا للنساء، سواء للاستخدام اليومي أو للمناسبات الاجتماعية والدينية (غنيمة، 1941، 569). وقد شكّل الذهب والفضة مادّتين أساسيتين في هذه الحرفة، وأسهم دخولهما في الارتقاء بفن الصياغة من مجرد نشاط حرفي تقليدي إلى مجال فني دقيق، يتطلّب مهارات تقنية عالية، ومعرفة بخصائص المعادن، وأساليب سبكها وتشكيلها وتزيينها، الأمر الذي أكسب الصنّاع العراقيين شهرة واسعة تجاوزت حدود العراق إلى سائر أقاليم العالم الإسلامي (متز، 1967، 406/2).

وقد انتشرت صناعة الذهب والصياغة في مختلف مدن العراق، ولا سيما بغداد والبصرة والكوفة وواسط، وهو ما يدلّ على أهميتها الاقتصادية والاجتماعية، إذ لم تقتصر هذه المدن على صناعة الحلي فحسب، بل غدت كذلك مراكز لضرب المسكوكات وصناعة النقود المصنوعة من الذهب والفضة والنحاس، والتي جرى التعامل بها في النشاط التجاري على نطاق واسع، وأسهمت في تنشيط الحركة الاقتصادية الداخلية والخارجية (الكبيسي، 1985، 291). ويُلاحظ أن عددًا كبيرًا من هذه المسكوكات يعود إلى العصر العباسي المتأخر، ولا سيما في عهد الخليفة المستنصر بالله (623–640هـ / 1226–1242م)، ما يعكس استمرار الحيوية الاقتصادية وتطوّر النظام النقدي، وقدرة الدولة على الحفاظ على حدٍّ معقول من الاستقرار المالي رغم ما شهدته تلك المرحلة من تحديات سياسية وعسكرية.

كما ارتبط تطور حرفة الصياغة بوجود شبكة واسعة من التبادل التجاري، وفّرت المعادن النفيسة الخام من مصادر مختلفة، سواء من داخل العراق أو من الأقاليم المجاورة، الأمر الذي أتاح للصنّاع تطوير أساليبهم الفنية، وتنوّع منتجاتهم، لتشمل الخواتم، والأساور، والقلائد، والتيجان، إضافة إلى الأدوات المذهّبة ذات الاستعمال المنزلي أو الطقوسي. وقد أشار بعض الجغرافيين والمؤرخين إلى دقّة الصياغة العراقية، وإلى ما امتازت به من إحكام الصنعة وحسن التشكيل، وهو ما جعل منتجاتها مرغوبة في الأسواق البعيدة (ابن الفقيه، 1996، 35).

وقد اشتهر أهل الذمّة بمزاولة هذه الحرفة، لما امتلكوه من خبرة فنية متوارثة، وحقّق العاملون فيها أرباحًا كبيرة، الأمر الذي جعلها محطّ اهتمام السلطة المالية. فقد ورد أن متولّي الجوالي كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله مقترحًا زيادة الضريبة المفروضة على أهل الذمّة بسبب ما تدرّه عليهم هذه الحرفة من أرباح وفيرة، غير أنّ الخليفة لم يأخذ بهذا الرأي (غنيمة، 1941، 129). ويشير هذا الموقف إلى إدراك الدولة لأهمية الاستقرار الحِرَفي، وحرصها على عدم إثقال كاهل العاملين بالضرائب، لما قد يترتّب على ذلك من تعطيل الإنتاج أو إضعاف النشاط الاقتصادي العام.

ولم يقتصر تطور صناعة الصياغة على الجانب الاقتصادي فحسب، بل امتدّ إلى المجال الفني والمعماري، إذ استُخدم الذهب في الزخرفة والتزيين داخل المنشآت الكبرى. ويذكر ابن الفوطي في وصفه للمدرسة المستنصرية أن الذهب استُخدم في بعض العناصر الزخرفية، من خلال إنشاء دائرة صُوِّرت فيها هيئة الفلك، ووضِعت فيها زخارف مذهّبة في مناسبات محددة، وهو ما يعكس مستوىً رفيعًا من الترف الفني، ودقّة في التنفيذ، وتكاملًا بين الحرفة والفن والرمزية المعمارية في العصر العباسي الأخير (ابن الفوطي، د.ت، 339/3).

وإلى جانب حرفة صياغة الذهب، وُجدت في العصر العباسي الأخير العديد من المهن والحِرَف الأخرى، التي كانت في جوهرها امتدادًا للحِرَف التي عرفتها العصور السابقة، لكنها شهدت تطورًا ملحوظًا بتطوّر الحياة العامة في المجتمع، واتساع حاجات الناس وتنوّعها. وقد اتّسمت هذه الحِرَف بدرجة من التنظيم المؤسسي، إذ كانت لكل حرفة نقابة أو جماعة مهنية تتولى شؤونها، وتنظم شؤون التدريب والممارسة، وتسعى إلى حماية مصالح أصحابها، ومنع الإضرار بهم، كما كانت هذه النقابات تلجأ إلى القضاء في حال نشوب نزاعات فيما بينها أو مع غيرها، الأمر الذي يعكس مستوىً متقدمًا من الوعي المهني والتنظيم الاجتماعي، ويُبرز دور الحِرَف بوصفها ركيزة أساسية من ركائز الحياة الاقتصادية والحضارية في العصر العباسي الأخير (الشيزري، د.ت، 64؛ ابن الأخوة، 1938، 119).

تنظيم النقابات:

نظّم أهل المهن والحِرَف في العراق خلال العصر العباسي الأخير أنفسهم ضمن نقابات مهنية واضحة المعالم، شكّلت بنية تنظيمية متماسكة أسهمت في ضبط شؤون العمل الحِرَفي، وحماية مصالح المنتسبين إليه، وتنظيم العلاقة بين الحِرَف والسلطة والمجتمع (ماسينون، د.ت، 354/14). ولم تكن هذه النقابات كيانات شكلية أو تجمعات عفوية، بل مثّلت مؤسسات مهنية ذات أطر تنظيمية دقيقة، قامت على قواعد متعارف عليها بين أهل الصنعة، وأسهمت في تحقيق قدرٍ من الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي داخل المدن العباسية.

وكان يتولّى رئاسة كل صنف من أصناف الحِرَف شخص يُعرف بالعريف أو الرئيس، وهو حلقة الوصل بين أفراد الحرفة من جهة، والسلطات الإدارية من جهة أخرى. وقد أوكلت إليه مهمات متعددة، من بينها الإشراف على جودة الإنتاج، وتنظيم شؤون العمل، والنظر في مصالح العاملين، والسعي إلى حلّ ما قد ينشأ بينهم من نزاعات مهنية أو خلافات تتعلق بالأجور أو شروط العمل، بما يضمن استمرارية النشاط الحِرَفي واستقراره (الشيزري، د.ت، 58).

وقد خضعت هذه النقابات لإشراف الدولة من خلال وظيفة المحتسب، الذي عُدّ أحد أهم أعمدة التنظيم الاقتصادي والاجتماعي في المدن الإسلامية. إذ كان المحتسب المسؤول المباشر عن مراقبة أصناف الحِرَف، وضبط الموازين والمكاييل، ومنع الغش والتدليس، والتأكد من التزام الصناع بالقواعد المهنية والأخلاقية. وتشير المصادر إلى أن المحتسب كان يحتفظ بسجلات خاصة تتضمّن أسماء الحرفيين المنتسبين إلى كل صنف، وأعدادهم، وأماكن حوانيتهم، وهو ما يعكس درجة عالية من التنظيم الإداري والدقة في المتابعة (الكبيسي، 1985، 196؛ ابن الأخوة، 1938، 74).

وتُظهر طريقة تعيين المحتسب، الذي كانت الحكومة تتولى اختياره مباشرة، مدى اهتمام السلطة العباسية بتنظيم النشاط الحِرَفي وضبط الأسواق، بوصف ذلك جزءًا لا يتجزأ من الحفاظ على الاستقرار الاقتصادي وحماية المستهلكين، فضلًا عن ضمان موارد الدولة المالية (الدوري، 1999، 238).

ونتيجة لهذا التنظيم الدقيق، تجمّعت كل فئة من أصحاب الحِرَف في أسواق خاصة عُرفت بأسماء تلك الحِرَف، مثل سوق الصاغة، وسوق النسّاجين، وسوق الورّاقين، وهو ما أسهم في إبراز الهوية المهنية لكل صنف، وسهّل عملية الرقابة والإشراف، وأتاح للناس الوصول المباشر إلى أصحاب الحِرَف بحسب حاجاتهم.

كما ساعد هذا التجمّع المكاني على تبادل الخبرات بين الصناع، ورفع مستوى الإتقان والجودة في الإنتاج (متز، 1967، 387/2).

ويظهر بوضوح أن التنظيم الحِرَفي لم يكن سطحيًا، بل ارتكز على نظام دقيق للتدرّج المهني، يهدف إلى نقل الخبرة والمعرفة الفنية بصورة منهجية. إذ يبدأ الفرد مرحلة التعلّم بوصفه مبتدئًا أو متعلّمًا، يعمل تحت إشراف الأستاذ، ثم يرتقي إلى مرتبة الصانع بعد اكتسابه الخبرة العملية، ليصل في نهاية المطاف إلى مرتبة الأستاذ، وهي أعلى مراتب الحرفة، وتُمنح لمن بلغ درجة عالية من الإتقان والسمعة المهنية (ماسينون، د.ت، 354/14).

وكان للأستاذ مساعد يُعرف بالخليفة، يعاونه في إدارة شؤون الصنعة، والإشراف على المتعلّمين، وضمان الالتزام بالقواعد المهنية داخل الحرفة. ويُطلق على الصبي الذي يتلقّى التدريب اسم المتعلّم، أما العامل المتمرّس فيُسمّى الصانع. ويعكس هذا التقسيم الهرمي وعيًا مهنيًا متقدمًا يقوم على التدرّج في اكتساب المهارة، ويضمن استمرارية الحرفة وانتقالها من جيل إلى آخر دون انقطاع أو تراجع في المستوى الفني (الشيزري، د.ت، 60).

وقد تميّزت كل حرفة بلباس خاص يميّز أهلها عن غيرهم، بما يعزّز الشعور بالانتماء المهني ويكرّس الهوية الجماعية للصنف. وكان الصناع يشكّلون جمهور الحرفة وعمودها الفقري، وعلى أيديهم تتم عملية تعليم المبتدئين وتدريبهم تدريبًا عمليًا داخل الحوانيت والأسواق، التي لم تكن مجرد أماكن للبيع، بل فضاءات للإنتاج والتعلّم ونقل الخبرة (ماسينون، د.ت، 354/14).

واللافت أن هذه الحِرَف كانت مفتوحة أمام الناس من مختلف الديانات والأصول الاجتماعية، إذ لم يكن الانتماء الديني عائقًا أمام ممارسة المهنة، بل كانت الحرفة نفسها رابطة أساسية تجمع أصحابها، وتقوم على أسس التعاون والتكافل والدعم المتبادل. وقد أسهم هذا الانفتاح المهني في خلق بيئة حضرية متماسكة، خفّفت من حدّة الانقسامات الاجتماعية، ورسّخت الاستقرار داخل المجتمع العباسي، ولا سيما في المدن الكبرى (الدوري، 1999، 245؛ غنيمة، 1941، 133).

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

الخاتمة:

- شهد العراق في العصر العباسي المتأخر ازدهارًا صناعيًا ملحوظًا، أسهم فيه توفر المواد الأولية وتطور النشاط التجاري واتساع الأسواق الحضرية.
- لعب الخلفاء العباسيون دورًا محوريًا في دعم المهن والحِرَف، من خلال تطوير الصناعات القائمة وإنشاء صناعات جديدة بوصفها موردًا اقتصاديًا مهمًا للدولة.
- أسهم إشراف الخلافة المباشر على المصانع والأسواق في بروز ظاهرة التخصص المهني والحِرَفي، ورفع مستوى الجودة والإنتاج.
- كان لنظام الحِسبة وتنظيم الأسواق المتخصصة أثر واضح في ضبط العمل الحِرَفي، والحفاظ على حقوق الحرفيين، وتنظيم العلاقة بينهم وبين الدولة.
- برزت مدن العراق، ولا سيما بغداد، مراكز صناعية كبرى، واشتهرت بصناعات متعددة مثل النسيج، وصناعة الورق، والصباغة، والصياغة، التي اكتسبت شهرة واسعة داخل العالم الإسلامي وخارجه.
- حظيت صناعة النسيج والألبسة برعاية خاصة، انعكست في تطور أساليب الصباغة والتطريز وتنوع الألوان، وارتباط بعض منتجاتها بالمؤسسة الخلافية والدينية.
- مثّلت صناعة الورق إحدى أبرز الصناعات الاستراتيجية، وأسهمت في دعم الحركة العلمية والفكرية، وكان للعراق فضل الريادة في نقل هذه الصناعة إلى العالم الإسلامي ثم إلى أوروبا.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد .(1884) .مختصر كتاب البلدان .ليدن.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (د.ت.) .المقدمة .بيروت: دار البنان.
3. بن أبي بكر المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد .(1909) .أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .ليدن: مطبعة بريل.
4. البنداري، الفتح بن علي بن محمد .(1978) .تاريخ دولة آل سلجوق .بيروت: دار الآفاق.
5. الجميلي، حسين حديس .(1987) .عصر الخليفة المستنصر بالله (623/640هـ – 1226/1242م) (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة الموصل، كلية الآداب.
6. الدوري، (1999) .تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري .بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
7. غنيمة، يوسف رزق الله. (1941). صناعات العراق في عهد العباسيين .مجلة غرفة تجارة بغداد.
8. الكبيسي، حمدان مجيد .(1985) .حضارة العراق .بغداد: دار الحرية.
9. متز، آدم، .(1967) .الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة). بيروت: دار الكتاب العربي.
10. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .(1949) .نهاية الأرب في فنون الأدب .القاهرة: دار الكتب المصرية.

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

List of sources and references:

1. Ibn al-Faqih, Abu Bakr Ahmad ibn Muhammad. (1884). Mukhtasar Kitab al-Buldan. Leiden.
2. Ibn Khaldun, Abd al-Rahman ibn Muhammad. (n.d.). Al-Muqaddimah. Beirut: Dar al-Banan.
3. Ibn Abi Bakr al-Maqdisi, Shams al-Din Abu Abd Allah Muhammad. (1909). Ahsan al-Taqasim fi Maʿrifat al-Aqalim. Leiden: Brill Press.
4. al-Bundari, al-Fath ibn Ali ibn Muhammad. (1978). Tarikh Dawlat Al-Saljuq. Beirut: Dar al-Afaq.
5. al-Jumayli, Husayn Hadis. (1987). The Era of Caliph al-Mustansir Billah (640/623 AH – 1242/1226 CE) (Unpublished master's thesis). University of Mosul, College of Arts.
6. al-Duri. (1999). The Economic History of Iraq in the Fourth Century AH. Beirut: Center for Arab Unity Studies.
7. Ghunaymah, Yusuf Rizq Allah. (1941). Industries of Iraq during the Abbasid Era. Journal of the Baghdad Chamber of Commerce.
8. al-Kubaysi, Hamdan Majid. (1985). Civilization of Iraq. Baghdad: Dar al-Hurriya.
9. Metz, Adam. (1967). Islamic Civilization in the Fourth Century AH (Trans. Muhammad Abd al-Hadi Abu Rida). Beirut: Dar al-Kitab al-Arabi.
10. al-Nuwayri, Shihab al-Din Ahmad ibn Abd al-Wahhab. (1949). Nihayat al-Arab fi Funun al-Adab. Cairo: Egyptian National Library.